

الجوانب الحضارية فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم

أ. د. حامد طاهر (*)

يتطلب بيان هذا الموضوع قليلا من التأمل فى الفترة التاريخية التى سبقت وواكبت حياة الرسول ﷺ ، وخاصة فى شبه الجزيرة العربية (أواخر القرن السادس الميلادى) مع استعراض حالة هذه المنطقة من الناحية البيئية وانعكاساتها على الجوانب الاجتماعية والأخلاقية والثقافية . والسبب فى ذلك أن الموضوع الذى سوف نتناوله فى هذا البحث ينصب على الجوانب الحضارية فى حياة الرسول ﷺ ، ولذلك يصبح من الطبيعى والمنهجى أيضا أن نستعرض البيئة التى ولد فيها ، (سنة ٥٧٠ م) ، ونشأ بين أهلها ، لكى يتضح مدى تقبله أو رفضه لتقاليد تلك البيئة وأعرافها ، وما كان يسودها من ثقافة وأخلاق .

والواقع أن ما تم رصده وتسجيله فى التاريخ الموثوق به عن حياة العرب قبل الإسلام مباشرة ، وأثناء ظهوره فى مكة (من سنة ٦١٠ وما تلاها) يدل على أن معظمهم كانوا :

- إما بدوا متقلبين بخيالهم وأنعامهم حيث توجد مواطن الرعى ، الناتجة عن المطر أو الآبار . وهؤلاء كثيرا ما كانوا يقتتلون من أجل الانفراد بها ، كما كانوا يكثرون الغارة على بعضهم من أجل الاستيلاء على خيراتهم .

- وإما بدوا مستقرين فى قرى ، صغرى أو كبرى . يقيمون فى منازل مبنية من الطين ، ويمارسون الزراعة كما فى يثرب ، أو التجارة كما فى مكة .

(*) أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم ، ونائب رئيس جامعة القاهرة سابقا .

وكان العرب جميعا موزعين إلى قبائل . والقبيلة هي الوحدة السياسية والاجتماعية التي ينتمى إليها الفرد : يدافع عنها عند الاعتداء ، ويشارك معها حين الغارة ، كما يؤمن بمعتقداتها ، ويخضع تماما لحكم رئيسها (شيخ القبيلة) . وهناك نسابون يعرفون جيدا تاريخ كل قبيلة ، وعلاقات السلم والحرب بينها ، كما كان هناك شعراء فى كل قبيلة ، يسجلون أيام مجدها ، ويفتخرون على شعراء القبائل الأخرى بانتصاراتها ، الأمر الذى كان يزيد من حدة العصبية فى نفوس أفرادها . لكن على أطراف شبه الجزيرة العربية ، كانت توجد اليمن فى الجنوب ، وهى بلاد تحضرت منذ زمن بعيد بفضل انتشار الزراعة والصناعة والتجارة فيها ، لذلك كانت أوفر حظا من الاستقرار والثروة . أما فى الشمال فكانت هناك قبيلتان عربيتان استخدمتهما دولتا الفرس والروم لتكونا درعا لهما ضد غارات البدو، وهما الغساسنة والمناذرة . وكان رئيسهما يحمل لقب ملك . وقوته العسكرية وتمويله مدعومان من الدولة الكبرى التى أقامته . وكثيرا ما كان يلجأ إليهما عرب البادية ليحصلوا منهما على بعض الهبات ، كما نجد ذلك واضحا فى قصائد النابغة الذبياني للنعمان بن المنذر .

أما بدو شبه الجزيرة العربية فكانوا يعيشون على ما تنتجه ماشيتهم من ألبان ولحوم . ومن أصوافها يصنعون ثيابهم . وعندما تنضب موارد القبيلة لا تتردد فى الإغارة على من حولها تبعا لقوتها أو ضعفها ، لذلك كانت بعض القبائل الضعيفة تلجأ إلى التحالف مع القبائل الأقوى للاحتماء بها ، وهذا ما كانوا يطلقون عليه اسم (الأحلاف) ، ويتبعه (ولاء) القبيلة الأضعف للأقوى منها .

مثل هذه الحياة القاسية والصعبة كانت تدفع العربى - رغم حريته الشخصية - إلى الاحتماء بقبيلته ، وعدم الخروج عن تقاليدها . وهى فى مقابل ذلك تتحمل أخطاءه ، وتدافع عنه ظالما أو مظلوما . وليس للدين قيمة كبيرة عند البدوى المرتحل . لكن مثله الأعلى كان يتمثل فيما يطلق عليه : "المروءة" ، وهى تعنى الشجاعة والكرم : الشجاعة فى قتال أعداء القبيلة ، والكرم فى منح الضيف أكثر ما يتطلب ، حتى لو بلغ الأمر أن يذبح من أجله بغيره الوحيد !

وفى هذه البيئة المجدية ، كانت المرأة تقوم بمشاركة الرجل فى كل شئون حياته ، ما عدا القتال . فهى تجلب الحطب وماء الشرب ، وتحلب الماشية ، وتنسج المنسج . ولا تعلق مكانتها إلا بإنجاب الذكور . أما البنات فكان موضع هوان . وكانت بعض القبائل تقتلن بمجرد ولادتهن . كما كان بعض العرب ينكس رأسه خزيًا من إنجاب البنات !

وكان شائعا لدى العرب قبل الإسلام : شرب الخمر ، والتمتع بالجوارى . كما استقرت فى معاملاتهم أنواع متعددة من الربا ، الذى كان بعضه يضطر غير القادر على سداد ديونه وفوائدها إلى أن يصبح عبدا للدائن .

وكانت مكة عاصمة العرب الروحية والاقتصادية ، فيها توجد الكعبة التى بناها ابراهيم واسماعيل ، عليهما السلام ، وكانت دعوتهما تسمى (الحنيفية) التى تقوم على عبادة الله الواحد . لكن هذه العبادة تلاشت مع مرور الزمن من نفوس العرب ، وحل محلها عبادة الأصنام التى أقاموها حول الكعبة ، وهى عبارة عن حجاره منصوبة أو منحوتة ، أطلقوا عليها أسماء مختلفة ، وكانوا يعتقدون أنها تقربهم إلى الله، لكنهم لم تكن لديهم أى فكرة واضحة عن الله . وبالطبع كان موسم الحج لديهم فرصة لازدهار حركة البيع والشراء وعقد الصفقات ، وبذلك ارتفعت مكانة قبيلة قريش بين سائر القبائل العربية .

وفى هذه البيئة ، ولد محمد ، صلى الله عليه وسلم ، سنة ٥٧٠ ميلادية . وفد انتقل مع مرضعته حليلة ليعيش فى البيئة البدوية الخالصة لدى قبيلتها بنى سعد ، ولكى يتشرب اللغة العربية الخالصة على عادة القبائل التى كانت تعيش فى القرى المستقرة ، وقد بقى فيها حتى سن الخامسة ، فأعيد إلى أمه فى مكة . ولد محمد يتيم الأب ، ثم توفيت أمه وهو فى السادسة من عمره ، فأصبح فى رعاية جده عبد المطلب ، كبير قبيلة بنى هاشم . وعندما توفى كفله عمه أبو طالب ، ولأنه كان كثير العيال ، فقد قرر محمد الاشتغال بالرعى ، ثم بالتجارة بعد ذلك ، وذات مرة اصطحبه عمه فى رحلة إلى الشام . لكنه بدأ يشعر بكثير من الاستقرار حين تزوج وهو فى الخامسة والعشرين من السيدة خديجة ، حيث

أتاحت له فرصة الانفراد بنفسه فى غار حراء للتأمل ، والتعبد على دين ابراهيم ، عليه السلام : الحنيفية السمحاء . وقد ظل على تلك الحال خمسة عشر عاما حتى بلغ الأربعين .

طوال فترة شباب محمد ، لم يشارك قومه قط فى عبادة الأصنام ، كما لم يقع فيما كان يقع فيه أضرابه من الشباب من اللهو والمجون . وكان دائما مثالا للشباب المستقيم فى خلقه وسلوكه . وكان الناس يأتمنونه على ودائعهم فيحفظها لهم ، حتى أصبح يعرف بلقب "الأمين" . وعندما أعيد بناء الكعبة على أثر سيول هدمتها ، اختلفت قبائل مكة على من ينال شرف وضع الحجر الأسود فى مكانه منها ، كان محمد هو الذى حكم بينهم ، حين بسط ثوبه فوضع فيه الحجر ، ثم جعل القبائل المتصارعة كلها تشارك فى حمله من أطراف الثوب . فرضى الجميع ، وخمدت نار فتنة كان من الممكن أن تتأجج بينهم .

فى سن الأربعين ، وأثناء تعبده فى غار حراء ، الواقع فى جبل أبى قبيس بجانب مكة ، نزل على محمد الوحي ، وأمره بتبليغ رسالة الإسلام إلى أهل مكة أولا ، ثم إلى الناس كلهم . وهنا بدأت الأزمة : فقد جاء يدعوهم لاطراح عبادة الأصنام ، التى لا تنفع ولا تضر ، وأن يتجهوا لعبادة الله الواحد ، خالق السماوات والأرض ، ورازق كل حى ، وباعث البشر جميعا يوم القيامة ليحاسبهم على كل ما فعلوه فى حياتهم من خير وشر . وكان معنى هذا أن يتخلوا عن دينهم الذى ورثوه عن آبائهم وأجدادهم ، وأن تخرج من بين أيديهم خدمة الكعبة التى كانت ترفع مكانتهم بين قبائل العرب ، كذلك جاء الإسلام بالمساواة بين جميع البشر ، وبث روح الأخوة بينهم ، لكن مشركى مكة كانوا لا يعترفون بتلك المساواة ، بل كان فيهم سادة وعبيد ، ثم قبائل موالية لهم ، أى أدنى درجة منهم . والخلاصة أن الإسلام الذى يدعو إليه محمد سوف يهز نظامهم العقائدى والاجتماعى والاقتصادى.

من هنا بدأت المقاومة الشديدة لمحمد وللإسلام . ثم راحت تشتد عندما أقبل الفقراء والعبيد على اعتناق الدين الجديد ، والخروج بالتالى من الطاعة المطلقة لأسيادهم ، فقاموا بتعذيبهم ، والتنكيل بهم حتى قتل بعضهم دون أن يرجع عن

إسلامه. وعندما زاد الأذى بهؤلاء المستضعفين . سمح لهم الرسول ، ﷺ ، بالهجرة إلى الحبشة ، حيث يوجد ملك مسيحي (النجاشي) يمكن أن يحسن استقبالهم .

ظل محمد ثابتاً على موقفه في تبليغ الدعوة . و متمسكاً إلى أبعد حد بالسير فيها ، على الرغم من التهديدات التي وجهت إليه ، والاعراض التي قدمت له ، وقد قال لعمه حين نقل إليه بعض هذه الاعراض قولته المشهورة : " والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في شمالي ، على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله ، أو أهلك دونه " .

وقد عانى محمد ، صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه الكثير من صنوف الأذى والتكيل ، إلى جانب التضيق عليهم في المأكل والمشرب ، حتى بلغ بقرش الانتقام إلى حد مقاطعة قبيلة بني هاشم كلها ، وألجأهم إلى العيش في شعب بالجبل ، لا يكلمونهم ولا يتعاملون معهم بيعة أو شراء ، حتى اضطروهم إلى أكل أوراق الشجر! ولكن ذلك كله لم يؤثر في ثبات الرسول وأصحابه على الإسلام ، بل إن المقبلين على اعتناقه ظلوا في تزايد ، حتى جاء اليوم الذي زار مكة فيه وفد من المدينة فدخلوا في الإسلام ، ووعدوا الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، أن يأتوا إليه في العام القادم بأعداد أكبر مسلمين ومبايعين . وفي هذا اللقاء الثاني اتفقوا على أن يستقبلوه في المدينة معززا مكرما حتى يتمكن من نشر دعوته بعيدا عن حصار أهل مكة له ولإصحابه .

في المدينة ، بدأ انتشار الإسلام بين أهلها أولا ، ثم في سائر القبائل العربية بعد ذلك ، حتى إنه وصل أخيرا إلى مكة ، ودخلها المسلمون فاتحين فحطموا الأصنام من حول الكعبة ، وأعادوها كما كانت بيتا لله الواحد ، كما أقامه إبراهيم وابنه اسماعيل ، عليهما السلام .

عاش الرسول ، ﷺ ، في المدينة عشر سنوات ، أكمل فيها تبليغ القرآن الكريم كما أنزله الله تعالى عليه ، وبيّن قواعده للمسلمين ، وأشاع تعليماته وتوجيهاته

وأخلاقه من خلال حياته نفسها . وقد سئلت السيدة عائشة عن أخلاق الرسول فأجابت إجابة جامعة بقولها : "كان خلقه القرآن".

خلال تلك السنوات العشر ، كان الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، هو النموذج الكامل للمسلم الذى دعا إليه الإسلام : شخصية بشرية تقوم على إخلاص العبادة لله تعالى ، وحسن معاملة الناس جميعا : مسلمين وغير مسلمين ، بالإضافة إلى رفق بالحيوان ، وحفاظ على البيئة .

لكننا فى البداية ينبغي أن ننبه إلى أن الجوانب الحضارية التى سوف نتوقف عندها ، أو نشير إليها فى حياة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، لم تكن معروفة أو متداولة فى عصره ، وهذا ما يعطيها قيمة تاريخية خاصة . كذلك فإن ما وصلت إليه الإنسانية بعد أكثر من أربعة عشر قرنا من مستويات التحضر والمدنية مازال قاصرا فى الكثير من عناصره عما دعا إليه رسول الإسلام . وهذا ما يعطيها من الجانب الآخر قيمة انسانية مستمرة ، بحيث تتجاوز حدود الزمان والمكان والبيئة .

وفيما يلى سوف نتناول بعض الجوانب الحضارية فى حياة الرسول ، ﷺ ، معتمدين بصورة أساسية على ما سجله لنا الإمام البخارى (ت ٢٥٦ هجرية) فى كتابه الرائع (الأدب المفرد) .

حسن الخلق :

- عن أبى الدرداء أن رسول الله ، ﷺ ، قال : " ما من شئ فى الميزان أثقل من حسن الخلق " .

- وقال : " خياركم أحسنكم أخلاقا " .

- وقال : " أخبركم بأحبكم إلىّ ، وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة ؟ " فسكت القوم ، فأعادها مرتين أو ثلاثا . قال القوم : نعم يا رسول الله . قال : " أحسنكم أخلاقا " .

- وقالت عائشة ، رضى الله عنها : ما خير رسول الله ، ﷺ ، بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما .

- وعن أنس بن مالك قال : خدمت النبي ، ﷺ ، عشر سنين ، فما قال لى أف قط .
وما قال لى لشيء لم أفعله : ألا كنت فعلته ؟! ولا لشيء فعلته : لم فعلته ؟ .

- وعن جابر قال : ما سئل النبي ، ﷺ ، شيئا ، فقال لا .

- وقال رسول الله ، ﷺ : " إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة القائم بالليل " .

- وقال : " خيركم إسلاما : أحسنكم أخلاقا إذا فقهوا " .

- وسأله جمع من الأعراب : يا رسول الله ، ما خير ما أعطى الإنسان ؟ قال : " خلق حسن " .

- وقال : " البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك فى نفسك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس " .

- وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ، ﷺ ، كان يكثر أن يدعو : " اللهم إني أسألك الصحة والعفة والأمانة وحسن الخلق والرضا بالقدر " .

- وقال رسول الله ، ﷺ : " ليس المؤمن بالطعان ، ولا اللعان ، ولا الفاحش ، ولا البذئ " .

- وعن أبى هريرة قال : قيل يا رسول الله : ادع الله على المشركين ، قال : " إني لم أبعث لعانا ، ولكن بعثت رحمة " .

النظافة الشخصية :

- عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : " خمس من الفطرة : قص الشارب ، وتقليم الأظافر ، وحلق العانة ، ونتف الإبط ، والسواك " .

الرسول فى بيته :

- سئلت السيدة عائشة ، رضى الله عنها : ما كان يصنع النبي ، ﷺ ، فى أهله ؟ فقالت : كان يكون فى مهنة أهله ، إذا حضرت الصلاة خرج .

- وقالت : كان يخصف نعله ، ريعمل ما يعمل الرجل فى بيته .
- وقالت : ما يصنع أحدكم فى بيته : يخصف النعل ، ويرقع الثوب ، ويخيط .
- وقالت : كان بشرا من البشر : بقل ثوبه ، ويحلب شاته .

بر الوالدين :

ومعناه : مداومة صلتتهما ، ومتابعة أحوالهما ، وإجابة ما يطلبان أو يحتاجان إليه ، ومواصلة السؤال عنهما ، والدعاء لهما .

- عن جد ابن حكيم : قلت يا رسول الله ، من أبر ؟ قال : " أمك " ، قلت : من أبر (أى بعدها) ؟ قال : " أمك " ، قلت : من أبر ؟ قال : " أمك " . قلت : من أبر ؟ قال : " أباك " ، ثم الأقرب فالأقرب " .

- وكان أبو هريرة يستخلفه مروان ، وكان يكون بذى الحليفة ، فكانت أمه فى بيت وهو فى بيت ، فإذا أراد أن يخرج ، وقف على بابها فقال : السلام عليك يا أمه ورحمة الله وبركاته . فتقول : وعليك يا بنى ورحمة الله وبركاته . فتقول : وعليك يا بنى ورحمة الله وبركاته . فيقول : رحمك الله كما ربيتى صغيرا ، فتقول : رحمك الله كما بررتى كبيرا . وكان إذا أراد أن يدخل صنع مثله .

- وقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : " ألا أنبئكم بأكبر الكبائر (ثلاثا) ؟ " قالوا : بلى يا رسول الله قال : " الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، ألا وقول الزور ! " فجعل عقوق الوالدين بين كبيرتين .

... وجاء رجل يبائع النبى ، ﷺ ، على الهجرة ، وترك أبويه يبيكان ، فقال : " ارجع إليهما ، وأضحكهما كما أبكيتهما ! " .

- وجاء رجل إليه ، ﷺ ، يريد الجهاد ، فقال : " أحى والداك ؟ " قال : نعم . قال : " ففیهما فجاهد " .

- وعن أسماء بنت أبى بكر قالت : أتتنى أمى (وهى مشركة) راغبة (فى شئ) فسألت النبى ، ﷺ : أصلها ؟ قال : " نعم " .

- وفيها نزل قوله تعالى : [لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين] (سورة الممتحنة) ، (آية رقم ٨) .

- ومن تكريم الوالدين ألا يعرضهما ابنهما المسلم للإهانة : قال رسول الله ، ﷺ : " من الكبائر ألا يشتم الرجل والديه" فقالوا : كيف يشتم ؟ قال : يشتم الرجل، فيشتم أباه وأمه ! " .

- ومن بر الوالدين بعد موتهما ما أجاب به رسول الله ، ﷺ ، سائلا سألته : هل بقي من بر أبوي شيء بعد موتهما أبرهما ؟ قال : " نعم ، خصال أربع : الدعاء لهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما ، وإكرام صديقهما ، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما " .

- وسأل رجل رسول الله ، ﷺ : يا رسول الله ، إن أمي توفيت ولم توصي ، أفينفعها أن أتصدق عنها ؟ قال : " نعم " .

- وروى عنه ، ﷺ ، قال : " احفظ ود أبيك ، لا تقطعه فيطفيئ الله نورك ! " وأيضا قوله : " إن أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه ، ومن أقواله التي تجرى مجرى المثل : إن الود يتوارث .

تربية البنات والاحسان إليهن :

- قال رسول الله ، ﷺ : " من كان له ثلاث بنات ، وصبر عليهن ، وكساهن من جدته (أى من ماله) كنّ له حجابا من النار " .

- وقال : " ما من مسلم تدركه ابنتان ، فيحسن صحبتهما إلا أدخلته الجنة " .

- وفي حديث آخر : " لا يكون لأحد ثلاث بنات أو ثلاث أخوات فيحسن إليهن إلا دخل الجنة " .

- وقال ، ﷺ ، لسراقة بن جعشم : " ألا أدلك على أعظم الصدقة ؟ " قال : بلى يا رسول الله . قال : " ابنتك مردودة إليك (أى قد تطلق فتعود إليك) ليس لها كاسب غيرك " .

- وما روى فى الأثر عن عبد الله بن عمر : كان عنده رجل له بنات فتمنى موتهن، فغضب ابن عمر ، وقال له : أنت ترزقهن ؟! .
الرحمة بالأطفال :

- روى عن البراء قال : رأيت النبى ، ﷺ ، والحسن على عاتقه وهو يقول : " اللهم إنى أحبه فأحبه " .

- جاء أعرابى إلى النبى ، ﷺ ، فقال : أتقبلون صبيانكم ؟! فما نقبلهم . فقال النبى ، ﷺ : " أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة ؟! " .

- وعن أبى هريرة قال : قبل رسول الله ، ﷺ ، الحسن بن على ، وعنده الأقرع بن حابس التميمى جالس ، فقال الأقرع : إن لى عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا ، فنظر إليه الرسول ، ﷺ ، ثم قال : " من لا يرحم لا يرحم " .

- وعن ضرورة المساواة بينهم ، إن النعمان بن بشير قال : انطلق بى أبى إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يحملنى ، فقال : يا رسول الله ، إنى أشهدك أنى قد نحلته (وهبت) النعمان كذا وكذا .. فقال : " أكل ولدك نحلته ؟ " قال : لا . قال : " فأشهد غيرى .. " ثم قال : " أليس يسرك أن يكونوا فى البر سواء ؟ " قال : بلى . قال : " فلا .. إذن " .

- وجاءت امرأه إلى السيدة عائشة ، رضى الله عنها ، فأعطتها عائشة ثلاث تمرات ، فأعطت كل صبي لها ثمرة ، وأمسكت لنفسها ثمرة . فأكل الصبيان التمرتين ونظرا إلى أمهما ، فعمدت إلى الثمرة فشقتها فأعطت كل صبي نصف ثمرة، فجاء النبى ، ﷺ ، فأخبرته عائشة ، فقال : " وما يعجبك (يدهشك) من ذلك . لقد رحمها الله برحمتها صبيها ! " .

صلة الرحم :

ومعناها مودة الأقارب بعد الوالدين ، واستمرار التواصل معهم ، ومراعاة أحوالهم ، ومساعدة المحتاج منهم .

- يقول الرسول ، ﷺ : " إن الله يوصيكم بأمهاتكم ، ثم يوصيكم بأمهاتكم ، ثم يوصيكم بأبائكم ، ثم يوصيكم بالأقرب فالأقرب " .

- وسأل أعرابي الرسول ، ﷺ : أخبرني ما يقربني من الجنة ويباعدني من النار ؟ قال : "تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصل الرحم" .

- وقال رسول الله ، ﷺ : " الرحم شجنة من الرحمن (والشجنة : عروق الشجر المشبكة) من يصلها يصله ، ومن يقطعها يقطعه ، لها لسان ذلق (أى فصيح) يوم القيامة " .

- وقال رسول الله ، ﷺ : " من أحب أن يبسط الله في رزقه وأن يسأله في أثره فليصل رحمه " .

- وقال رسول الله ، ﷺ : " لا يدخل الجنة قاطع رحم " .

- وقال : " إن الرحمة لا تنزل على قوم فيهم قاطع رحم " .

- وجاء رجل يقول لرسول الله ، ﷺ : يا رسول الله إن لى قرابة أصلهم ويقطعون ، وأحسن إليهم ويسيئون إليّ ، ويجهلون عليّ وأحلم عنهم . قال : " لئن كان كما تقول .. كأنما تسفهم الملّ (أى تجعل وجوههم كلون الرماد) ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ، مادمتم على ذلك " .

حسن معاملة الجار :

- قال رسول الله ، ﷺ : " مازال جبريل يوصيني بالجار ، حتى ظننت أنه سيورثه " .

- وقال : " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره ... " .

- وعن المقداد بن الأسود : سأل رسول الله ، ﷺ ، أصحابه عن الزنا ؟ قالوا : حرام حرمه الله ورسوله . فقال : " لأن يزنى الرجل بعشرة نسوة أيسر عليه من أن يزنى بامرأة جاره ! وسألهم عن السرقة ؟ قالوا : حرام حرمه الله ورسوله . فقال : " لأن يسرق من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من بيت جاره !
- وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت يا رسول الله ، إن لى جارين فألى أيهما أهدى ؟ قال : " إلى أقربهما منك بابا " .
- وقال رسول الله ، ﷺ : " كم من جار متعلق بجاره يوم القيامة ، يقول : يارب ، هذا أغلق بابي دوني ، فمنع معرفه ! " .
- وقال : " ليس المؤمن الذى يشبع وجاره جائع " .
- وقال : " يا أبا ذر ، إذا طبخت مرقة فأكثر ماء المرقعة وتعاهد جيرانك (أو اقسم فى جيرانك) " .
- وقال : " خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه ، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره " .
- وقال : " ومن سعادة المرء المسلم : المسكن الواسع ، والجار الصالح ، والمركب النهي " .
- وقال : " لا تقوم الساعة حتى يقتل الرجل جاره وأخاه وأباه " .
- وقال : " لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه (أى شروره) " .
- وقال : " يا نساء المؤمنات ، لا تحقرن امرأة منكن لجارتها ، ولو كراخ شاة محرق ! " .
- وعن أبى هريرة ، قيل للنبي ، ﷺ : يا رسول الله ، إن فلانة تقوم الليل وتصوم النهار وتعدل وتصدق وتؤذى جيرانها بلسانها ؟ فقال : " لا خير فيها ، هى من أهل النار " . قالوا : فلانة تصلى المكتوبة وتصدق بأثواب ولا تؤذى أحدا ؟ فقال : " هى من أهل الجنة " .

- ومن أطرف ما روى عن الجار المؤذى لجاره ، ما رواه أبو هريرة قال : قال رجل : يا رسول الله ، إن لى جاراً يؤذيني ؟ فقال : " انطلق فأخرج متاعك إلى الطريق " .. فانطلق فأخرج متاعه فاجتمع الناس عليه فقالوا : ما شأنك ؟ قال : لى جار يؤذيني ، فذكرت ذلك للنبي ، ﷺ ، فقال انطلق فأخرج متاعك إلى الطريق .. فجعلوا يقولون : اللهم العنة ، اللهم اخزه .. فبلغه ، فأتاه فقال : ارجع إلى منزلك ، فوالله لا أؤذيك ! .

رعاية اليتيم :

- قال رسول الله ﷺ : " أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهاتين (وأشار إلى سبائته والوسطى) " .

- وقال : " خير بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه ، وشر بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه " .

- وقال : " أنا وامرأة سفعاء الخدين (مسودة) : امرأة أمت من زوجها (مات عنها) فصبرت على ولدها كهاتين فى الجنة " .

- وعن أبى هريرة ، قال رسول الله ، ﷺ : " الساعى على الأرملة والمساكين كالمجاهد فى سبيل الله ، وكالذى يصوم النهار ويقوم الليل " .

عيادة المريض :

- عن أبى هريرة أن رسول الله ، ﷺ ، قال : " ثلاث كلهن حق على كل مسلم : عيادة المريض ، وشهود الجنازة ، وتشميت العاطس إذا حمد الله عز وجل " .

- وقال : " عودوا المريض ، واتبعوا الجنائز تذكركم بالآخرة " .

- وعن أبى حفص قال : سمعت النبي ، ﷺ ، يقول : " من عاد مريضاً خاض فى الرحمة حتى إذا قعد استقر فيها " .

- وعن ابن عباس أن رسول الله ، ﷺ ، كان إذا دخل على مريض يعوده يقول : " لا بأس ، طهور إن شاء الله " .

- وعنه أيضا أن النبي ﷺ . كان إذا عاد المريض جلس عند رأسه . ثم قال سبع مرات : " أسأل الله العظيم . رب العرش العظيم أن يشفيك . فإن كان في أجله تأخير عوفى من وجعه . "

الوجه الآخر للمرض :

- عن أبي هريرة أن النبي ﷺ . قال : " ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب . ولا هم ولا حزن . ولا أذى ولا غم . حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها " .

- وعنه أيضا أن النبي ﷺ . قال : لا يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في جسمه وأهله وماله حتى يلقى الله عز وجل . وما عليه من خطيئة " .

- وعنه أيضا قال : جاء أعرابي ، فقال النبي ﷺ : " هل اخذتك أم ملام (الحمى) ؟ " قال : وما أم ملام ؟ قال : " حر بين الجلد واللحم " . قال : لا ، قال : " فهل صدعت ؟ " قال : وما الصداع ؟ " قال : " ريح تعترض في الرأس تضرب العروق " . قال : لا . قال فلما قام ، قال : " من سره أن ينظر إلى رجل من أهل النار - أي فلينظره " .

- وقال رسول الله ﷺ : " ما من أحد يمرض إلا كتب له مثل ما كان يعمل وهو صحيح " .

- وعن جابر قال : سمعت النبي ﷺ . يقول : " ما من مؤمن ولا مؤمنة ولا مسلم ولا مسلمة يمرض مرضا إلا قضى الله به عنه من خطاياها " .

- وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ . قال : " ما من مسلم يشاك شوكة في الدنيا يحسبها إلا قضى بها من خطاياها يوم القيامة " .

من آداب المجالسة :

- قال النبي ﷺ : " إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون الثالث ، فإنه يحزنه ذلك " قلنا : فإن كانوا أربعة ؟ قال : " لا يضره " .

مراعاة ظروف المخاطبين :

- روى قيس عن أبيه أنه جاء ورسول الله ، ﷺ ، يخطب فقام في الشمس ، فأمره فتحول إلى الظل .

إفشاء السلام :

- قال رسول الله ، ﷺ : " إن السلام اسم من أسماء الله تعالى ، وصفة الله في الأرض ، فأفشوا السلام بينكم " .

- وقال : " أفشوا السلام تسلموا " .

- وقال : " لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أدلكم على ما تحابون به ؟ " قالوا : بلى يا رسول الله . قال : " إفشاء السلام " .

- وقال : " اعبدوا الرحمن ، وأطعموا الطعام ، وأفشوا السلام .. تدخلوا الجنان " .

- وقال : " ما حسدكم اليهود على شئ ما حسدكم على السلام والتأمين " .

- وعن أبي هريرة عن النبي ، ﷺ ، قال : " حق المسلم على المسلم خمس " قيل : ما هي ؟ قال : " إذا لقيته فسلم عليه ، وإذا دعاك فأجبه ، وإذا استنصحك فانصح له ، وإذا عطس فحمد الله فشمته ، وإذا مرض فعده " .

- وقال رسول الله ، ﷺ : " يسلم الراكب على الماشي ، والماشي على القاعد ، والقليل على الكثير " . وفي حديث آخر قال : " يسلم الصغير على الكبير " .

- وقال له رجل : يا رسول الله : أى الإسلام خير ؟ قال : " تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف " .

- وعن المقداد بن الأسود قال : كان النبي ، ﷺ ، يجرى من الليل فيسلم تسليماً لا يوقظ نائماً ، ويسمع اليقظان " .

- وكان أنس بن مالك يسلم على الصبيان ، وقال : كان النبي ، ﷺ ، يفعله بهم " .

المحبة بين الناس :

- عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : " والذي نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تسلموا ، ولا تسلموا حتى تحابوا . وأفشوا السلام تحابوا ، وإياكم والبغضة فإنها هي الحالقة - لا أقول تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين " .

- وقال : " إن روح المؤمنين ليلتقيان في مسيرة يوم ، وما رأى أحدهما صاحبه " .

- وقال : " لا تبأغضوا ، ولا تحاسدوا . وكونوا عباد الله إخوانا . ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال " .

- وقال : " ثلاث من لم يكن فيه غفر له ما سواه لمن يشاء : من مات لا يشرك بالله شيئا . ولم يكن ساحرا يتبع السحرة ، ولم يحقد عليه أخيه " .

- وقال : " إذا أحب أحدكم أخاه ، فليعلمه أنه أحبه " .

- وقال : " ما تحابا الرجلان إلا كان أحدهما أشد حبا لصاحبه " .

- وقال : " من هجر أخاه سنة . فهو يسفك دمه " .

- وقال : " تهادوا تحابوا " .

الحياء :

- عن أبي سعيد الخدري قال : كان النبي ﷺ ، أشد حياء من العذراء في خدرها ، وكان إذا كره .. عرفناه في وجهه .

- وقال الرسول ﷺ : " إن مما أدرك الناس من كلام النبوة : إذا لم تستح فاصنع ما شئت " .

- وقال : " ما كان الحياء في شيء إلا زانه ، ولا كان الفحش في شيء إلا شانه " .

- وقال : " الإيمان بضع وستون (أو سبعون) شعبة : أفضلها لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان " .

ثم الكبير :

- قال رسول الله ، ﷺ : " من تعظم فى نفسه ، أو اختال فى مشيته لقي الله ، عز وجل ، وهو عليه غضبان " .

- وقال : " ما استكبر من أكل معه خادمه ، وركب الحمار بالأسواق ، واعتقل الشاة فحلها " .

- وقال (عن الله تعالى) : " العز إزاره ، والكبرياء رداؤه ، فمن نازعنى بشئ منهما عذبتة " .

- وقال النبى ، ﷺ : " احتجبت الجنة والنار . قالت النار : يلجنى (أى يدخلنى) الجبارون ويلجنى المتكبرون . وقالت الجنة : يلجنى الضعفاء ويلجنى الفقراء . قال الله ، تبارك وتعالى ، للجنة : أنت رحمتى ، أرحم بك من أشاء ، ثم قال للنار : أنت عذابى أعذب بك من أشاء . ولكل واحدة منكما ملؤها " .

- وعن أبى هريرة أن رجلا أتى النبى ، ﷺ ، وكان جميلا ، فقال : حبيب إلى الجمال وأعطيت ما ترى ، حتى ما أحب أن يفوقنى أحد : الكبر ذاك ؟ قال : " لا ، ولكن الكبر من بطر الحق ، وغمط الناس " .

الرفق بالحيوان :

- عن أبى هريرة أن رسول الله ، ﷺ ، قال : " بينما رجل يمشى بطريق اشتد به العطش فوجد بئرا ، فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث ، يأكل من الثرى من العطش فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغنى ، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكها بفيه ، فسقى الكلب ، فشكر الله له ، فغفر له .. " قالوا : يا رسول الله وإن لنا فى البهائم لأجرا ؟ قال : " فى كل ذات كبد رطبة أجر " .

- وعن عبد الله بن عمر أن رسول الله ، ﷺ ، قال : " عذبت امرأة فى هرة حبستها حتى ماتت جوعا ، فدخلت فيها . يقال (والله أعلم) : لا أنت أطعمتها ولا سقيتها حين حبستها ، ولا أنت أرسلتها فأكلت من خشاش الأرض ! " .

-- وقال رسول الله ، ﷺ : " من رحم ولو ذبيحة رحمه الله يوم القيامة " .

- وروى أن رسول الله ، ﷺ ، نزل منزلا ، فأخذ رجل بيض حمرة (طائر كالعصفور) فجاءت ترف على رأس رسول الله ، ﷺ ، فقال : " أياكم فجع هذه بببيضتها ؟ " فقال رجل : يا رسول الله ، أنا أخذت بببيضتها . فقال النبي ، صلى الله عليه وسلم : " أردها رحمة لها " .

تنظيف الطريق :

- عن أبي برزة الأسلمي قال : قلت يا رسول الله : دلني على عمل يدخلني الجنة ؟ قال : " أمط الأذى عن طريق الناس " .

- وقال ﷺ : " مر رجل بشوك في الطريق فقال لأميطن هذا الشوك .. لا يضر رجلا مسلما - فغفر له " .

- وقال رسول الله ، ﷺ : " عرضت على أعمال أمتي : حسننها وسيئها ، فوجدت في محاسن أعمالها أن الأذى يماط عن الطريق ، ووجدت في مساوئ أعمالها النخاعة في المسجد لا تدفق ! " .

النهى عن سب الحمى :

- دخل النبي ، ﷺ ، على أم السائب ، وهى تزفرف (ترتعش) فقال : " مالك ؟ " قالت : الحمى ، أخزاها الله ! . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " مه ، لا تسبها ، فإنها تذهب خطايا المؤمن كما يذهب الكير خبث الحديد " .

النهى عن سب الريح :

- قال رسول الله ، ﷺ : " الريح من روح الله تأتي بالرحمة والعذاب ، فلا تسبوها ولكن سلوا الله من خيرها ، وتعوذوا بالله من شرها " .

- وعن جابر بن عبد الله قال : كنا مع رسول الله ﷺ ، وارتفعت ريح خبيثة منتنة ، فقال : " أتدرون ما هذه ؟ هذه ريح الذين يغتابون المؤمنين " .

الفرح بالمطر :

- عن أنس بن مالك قال : أصابنا مع ، النبي ، ﷺ ، مطر ، فحسر النبي صلى الله عليه وسلم عن ثوبه عنه حتى أصابه المطر . قلنا : لم فعلت ؟! قال : " إنه حديث عهد بربه ! " .

- ومحاكاة لذلك ، كان ابن عباس ، ﷺ ، إذا مطرت السماء يقول : يا جارية ، أخرجى سرجى ، أخرجى ثيابى ، ويقول : (وأنزلنا من السماء ماء مباركا) .

أهم النتائج المستخلصة :

أولا : أن ما أوردناه من أقوال الرسول ، ﷺ ، وأفعاله يدل بوضوح على مستوى حضارى عال ، يكاد يختلف تمام الاختلاف عما كان متعارفا عليه من الأخلاق والسلوكيات والقيم فى البيئة التى عاش فيها . وأهم ما يمكن ملاحظته فى هذا الصدد هو طابع الرفق والتسامح الذى تميزت به حياة الرسول ، ﷺ ، فى مقابل العنف والخشونة والعوانية التى كانت سائدة فى المجتمع البدوى .

ثانيا : أننا لا نكاد نجد أحدا من مشاهير العالم تنطبق تعاليمه النظرية على حياته الشخصية ، كما نجدها متمثلة فى حياة الرسول ، ﷺ ، فهو لم يقل شيئا لا يفعله ، ولم يوجه المسلمين إلى سلوك لم يطبقه عمليا فى تصرفاته اليومية ، ومن هنا كان وصف السيدة عائشة ، رضى الله عنها ، بقولها : " كان خلقه القرآن " . ولا شك أن هذا التطابق التام بين القول والعمل كان له أكبر الأثر فى التحول الأخلاقى السريع والعميق ، الذى حدث لصحابته فردا فردا ، ثم انتقل بالتالى إلى عموم المسلمين .

ثالثا : أن عاطفة الحب الشديد التى بثها الرسول ، ﷺ ، فى نفوس أصحابه جعلهم يتابعون حياته فى أدق تفاصيلها ، حتى كانوا يسألون زوجاته عما كان يفعله فى بيته ، وأثناء راحته أو نومه ، وذلك لكى يحاكوه أو يقتربوا منه . ونحن نعلم جيدا أن المحب يكون دائما على خطى من يحب . وهذا بدون شك هو السبب الكامن الذى مازال يدفع المسلمين جميعا فى سائر أرجاء العالم إلى محاولة الأخذ بسنته ، والالتزام الكامل بتوجيهاته فى أدق تفصيلاتها .

الأخلاقي السريع والعميق ، الذى حدث لصحابته فردا فردا ، ثم انتقل بالتالى إلى عموم المسلمين .

ثالثا : أن عاطفة الحب الشديد التى بثها الرسول ، ﷺ ، فى نفوس أصحابه جعلهم يتابعون حياته فى أدق تفاصيلها ، حتى كانوا يسألون زوجاته عما كان يفعله فى بيته ، وأثناء راحته أو نومه ، وذلك لكى يحاكوه أو يقتربوا منه . ونحن نعلم جيدا أن المحب يكون دائما على خطى من يحب . وهذا بدون شك هو السبب الكامن الذى مازال يدفع المسلمين جميعا فى سائر أرجاء العالم إلى محاولة الأخذ بسنته ، والالتزام الكامل بتوجيهاته فى أدق تفصيلاتها .

رابعا : أن الجوانب الحضارية فى حياة الرسول ، ﷺ ، ينبغى أن يستمر تسليط الضوء عليها للأجيال الحاضرة والقادمة ، فهى تمثل منظومة تربوية متكاملة يمكنها أن تعصم تلك الأجيال من الجنوح إلى الانحلال ، أو الوقوع فى التطرف . وكلا الطرفين يتناقض تماما مع النموذج الإنسانى الرفيع الذى يقدمه الرسول ، ﷺ .

مراجع للاستزادة :

- * أحمد أمين : فجر الإسلام ، ضحى الإسلام ، ظهر الإسلام .
- * أحمد الحمالوى : مورد الصفا فى سيرة المصطفى .
- * أبو الفيض المنوفى : سيرة سيد المرسلين .
- * ابن حيان الأصبهاني : أخلاق النبى (ص) وآدابه .
- * ابن فارس : أوجز السير لخير البشر .
- * ابن هشام : السيرة .
- * أبو نعيم الأصبهاني : دلائل النبوة .
- * الأبراشى (محمد عطية) : عظمة الرسول .
- * السيد أمير على (مترجم فى جزئين) : روح الإسلام .

- * البخارى : الأدب المفرد ، الصحيح .
- * الذهبى : تاريخ الإسلام (وخاصة المغازى والترجمة النبوية) .
- * ابن حزم : حجة الوداع .
- * عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء .
- * رفاعة الطهطاوى : نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز (٣ أجزاء) .
- * القاضى عياض : الشفا ، بتعريف حقوق المصطفى .
- * جاد المولى (محمد أحمد) : محمد المثل الكامل .
- * محمد حسين هيكل (د) : حياة محمد ، فى منزل الوحى .
- * محمد حميد الله : مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة .
- * محمد الخضرى : تاريخ الأمم الإسلامية .

* * *